

٣ - القرآن الكريم

في كتاب النثر الفني

نظاره إيجاز القرآن

للأستاذ محمد أحمد الخمراوي



الإيجاز إيجازان ، إيجاز معنى وإيجاز أسلوب . والإيجاع منعقد عليهما كليهما في القرآن ، لكنه إذا أطلق لا ينفك عن إيجاز الأسلوب ، لأن الأدب أسلوب قبل أن يكون معنى ، إذ المعنى للعقل والقلب ، فهو مشترك أو يمكن أن يكون مشتركاً بين اللغات . أما الأسلوب فخاص غير عام ، لكل لغة أساليبها ، بل لكل أديب أسلوبه . فن يفكر الأسلوب فقد أنكر الأدب في الواقع

وموقف الدكتور زكي مبارك من قيمة الأسلوب موقف عجب . فهو يجعل الأسلوب فصلاً بين لغة ولغة ، ولكنه لا يجعله فصلاً بين أديب وأديب أو بين بليغ وبليغ . فالفصاحة والبلاغة عنده للمعنى ، لا للفظ ولا للأسلوب . اقرأ له إن شئت في صفحة ٦٨ من الجزء الثاني قوله : « ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما في المعنى من قوة وروح » . وبعد أن أورد القطعة المروفة التي أولها : لو كنت من مازن لم تستبح أبلي بنو اللقيطة . عقب عليها بقوله « وهذه القطعة من بدائع الشعر العربي . وهي قطعة خالدة ستظل قوية بارعة ما بقي في العالم ناس يفهمون سر المربية . ومع هذا لا تستطيع أن تجد فيها ألفاظاً يميز على غير قائلها الوصول إليها ، أو أسلوباً في التعبير يتميز عن غيره من الأساليب . وجمالها كله يرجع إلى دقة المعنى وطرافته وتخير الألفاظ تخيراً يجعلها تتمثل مع المعنى كتلة واحدة »

ثم اقرأ له بعد ذلك « وقد نجد من الشعر ما تخلو مانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة ولكن قوة الروح تصل به إلى أقصى غايات الإبداع . ومثال ذلك قول حطان بن الملى يشكو فقره وما وضع القدر في رجليه من قيود الأهل والذرية :

أنزاني الدهر على حاكمه من شامخ عال إلى خفض
وبعد أن استوفى القطعة المروفة قال : « وقوة هذا الشعر ترجع إلى الشاعر لا إلى اللفظ ولا إلى الأسلوب » . وهو في تفريقه هذا بين الشاعر وأسلوبه كن يفرق بين المرء ووجهه أو بين الوجه وقسماته ، فالأسلوب هو الشاعر والكاتب ، والشاعر والكاتب هو الأسلوب . أو بمباراة أدق ، الأسلوب هو مظهر الأديب ومعبده سواء عبر عن كل ما في نفسه أو عن بعضه ، فهو كل ما يعرفه الناس من الشاعر أو الكاتب ، ولعل التفاوت في الأدب هو بقدر التفاوت في تعبير الأسلوب عن صاحبه ، فأقدر الأدباء هو أكثرهم تمثلاً في أسلوبه . لكننا نترك هذه المسألة للمشتغلين بالأدب يتنازعونها بينهم ، يوافقون الدكتور أو يخالفونه ، لكن الذي يهم قياً نحن بسبيله هو إنكار الدكتور في الظاهر كل قيمة للأسلوب ، واضطراره في النهاية إلى الإقرار له بكل قيمة حين جعله هو والمعنى كتلة واحدة كما رأيت في تعليقه على القطعة الأولى ، وكما ترى له فيما يأتي :

« ولا جدال في أن الألفاظ والأساليب تتلون وتتشكل بلون الفكرة التي تسيطر عليها . وعلى هذا الأساس وجد الأسلوب الجزل والأسلوب الرقيق . فالرقة والجزالة من مقتضيات المعاني لا الألفاظ . فالمعنى الجزل له لفظ جزل ، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق . فإذا غلبت الرقة على شاعر مثل البها زهير فرجمها إلى النكرة لأنه شاعر وديع يعبر عن معانٍ وديمة يلهم أمثالها أصحاب الوداعة والرقّة من الشعراء المترفين . وإذا غلبت الجزالة على شاعر مثل المتنبي فرجمها أيضاً إلى النكرة لأنه شاعر طامع في أسمى ما يطمح إليه فحول الرجال ... » ص ٧١ وهو في هذه القطعة يجعل المسألة مسألة ألفاظ ولا يجعل للتركيب شيئاً ، ثم يجعل اللفظ هو والمعنى شيئاً واحداً ، كأن المعنى إذا قام بالذهن ، والشعور إذا قام بالنفس ، جاء اللفظ طائماً ، جزلاً أو رقيقاً حسب المعنى أو الشعور . وهو لا يلتفت إلى ما يستلزمه هذا الرأي من وجوب اتحاد الأساليب باتحاد المعاني عند الأدباء ، مما هو باطل بالبدهة ، بل يزداد إغراباً وإغراباً إذ يقول : « ثم تقرر أن الألفاظ ملك للجميع يجذونها حيث أرادوا في المباحم والدواوين (والتعجب من عندنا) ولا يبقى موضعاً

للجهد والعتى أو العبقرية إلا المادى والأغراض

... إن الألفاظ في مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب ، ولكن المعجز حقاً هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزننا للصناعة الفنية . ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تنجيء أولاً ويحيى الورق ثانياً كما يقول الفرنسيون . وهو يريد بالورق فيما يبدو الألفاظ والأسلوب الذى سيبدو على الورق ، فإذا كان ذلك كذلك فقد رجع بعد طول الحوار والخلاف إلى ما عليه جمهرة الأدباء من أن المعنى أهم من الصناعة الفنية ولكن الصناعة الفنية لها قيمتها ووزنها . والأمر إليك الآن فى أن تجد إسماً لهذه الظاهرة فى كلام صاحب النثر الفنى : سمها تناقضاً ، أو سمها اضطراباً وتبليلاً ، أو سمها رجوعاً عن مذهب ظن أنه ابتكره إلى مذهب الناس ، وإن شئت فسمها رجوعاً إلى الحق إن كنت ممن يحسنون به الظن

ولكن - وهذا هو لب الموضوع وروحه - هل تظنه حكماً للقرآن بشيء من ناحية الأسلوب ؟ سأترك صاحب النثر الفنى يعبر عن نفسه بقدر الإمكان . قال متمماً لكلامه السابق : « وقد رأى ناس قول الباقلانى (ليس القرآن من جنس كلام العرب) فقررروا خاطئين أن القرآن يخالف ما درجت عليه البلاغة العربية من حيث الأسلوب . ولو سألتهم عن تحديد معنى الأسلوب لعجزوا عجزاً ميبناً ، لأن الأسلوب فى رأينا هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب وروحه وفكرته ومرماه . ولا يخطر لصاحب هذا الكلام أنه قد هدم كل ما قاله من قبل ، وجعل الأسلوب هو كل شيء مادام هو الصورة الظاهرة للعقل والروح والفكرة والفرض ، وهذه عنده هى كل شيء ، فلم يترك محكم للأسلوب القرآنى بشيء - « وليس فى مقدور أحد من المتفوقين فى علوم البلاغة أن يحدد الأسلوب تحديداً منطقياً يجمع خصائصه ويمنع ما يتطرق إليه من غريب الأوصاف ، أو أن يدلنا على خواص أسلوب القرآن دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والغموض ، فإن ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربى مبدع لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإعنا تمتاز بالمعنى والفرض والروح » !

أترى صاحب هذا الكلام يعقل ما يقول ؟ إنه يطالب غيره

بتحديد الأسلوب تحديداً منطقياً . ألا تعلم أولاً من المنطق كيف يكون التفكير ؟ ألفاظ القرآن لا تمتاز باللفظ ! طيب ! ولا بالأداء ! طيب أيضاً ! فهذا هو مذهب الدكتور . وإعنا تمتاز بالمعنى والفرض والروح ! ألم يقل هذا الرجل قبل ذلك بأسطر إن الأسلوب فى رأيه هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب وروحه وفكرته ومرماه ؟ أليس معنى ذلك أن الأسلوب يمتاز بامتياز ما يمثله من روح وفكرة ومرمى ؟ فكيف استقام عنده أن يمتاز القرآن بالمعنى والفرض والروح ولا يمتاز باللفظ ولا بالأداء ؟ ألم يقرر من قبل أن المعنى الجزل له لفظ جزل ، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق ، وأن الألفاظ والأساليب تتلون وتتشكل بلون الفكرة التى تسيطر عليها ؟ فكيف جاز فى تفكيره أن يكون المعنى القرآنى امتياز لا يكون مثله للفظ القرآنى والأسلوب ؟ إن هذا الرجل لا يدري أنه بقوله هذا يجمع على نفسه إنكار إعجاز المعنى إلى إنكار إعجاز الأسلوب ! والعجيب من أمره أنه يغضى على وجهه بضرب الأمثال لرأيه ذلك من القرآن إذ يقول : « فإن أراد أحد شاهداً على ما تقول فإننا نفتح المصحف عرضاً بدون تحجير ، ثم ننقل آيات لنسأله أن يعين ما جاء فيه غريباً عن الأساليب العربية . ولنختار خمس آيات من مطلع سورة الأنبياء : (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم ، وأمروا التجزى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون . قال رب يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) »

ومن قبل أن يستتم المعنى بالآية السادسة على الأقل (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ، أفهم يؤمنون) جعل يسأل القارىء « فأن تكون غريبة الأسلوب فى هذه الآيات الخمس ؟ وأين يكون السياق الفنى الغريب عن الأعراب ؟ أليس مرجع الروعة فى هذه الآيات إلى المعنى والروح ؟ أترونها تمتاز بالسجع ؟ وكيف والسجع كان معروفاً قبل القرآن ؟ أترون ألفاظها متخيرة منتقاة ؟ هو ذلك . ولكن كيف يدور اختيار

« فإن كانت هذه الآيات الخمس لا تكفي فإلى القارىء شواهد أخرى من القرآن المجيد . يقول الله عز شأنه (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا) وأنا أشهد صادقاً أنى ما فكرت فى هذه الآية إلا دهشت من سمو هذا النص النبيل . فإين يكون جمال هذه الآية ؟ أترونها من جنس غير جنس كلام العرب كما زعم الباقلائي ؟ هيئات ! إن ألفاظها تشبه جميع الألفاظ وتركيبها لا يتميز بشئ عن غيره من التراكيب . ثم يستكمل الاستشهاد بقوله : « على أنه من الخير أن نسوق الآية كاملة لتبين كيف يمكن أن تكون بعض أجزاء الآية الواحدة أقوى من بعض : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » . ألا ترون إن أنصفتهم أنى كلمة « اعدلوا هو أقرب للتقوى » تقل فى قوتها عن كلمة « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » . فما هو سبب التفاوت ؟ لا يظن أحد أن مرجع التفاوت هو الأسلوب ؛ فإن القرآن تفرد فى رأى مخالفينا بوحدة الأداء والتعبير . فلم يبق من فرق بين صدر الآية وعجزها غير تفاوت المعنى . والتفاوت هنا جاء من أن صدر الآية معنى بكر لا يجرى إلا على السنة الحكماء والأنبياء ، على حين ترى عجز الآية يؤدى معنى مفهوماً لدى جميع الناس »

فهل ترى هذا الرجل يفهم قوله تعالى « اعدلوا ، هو أقرب للتقوى » ؟ لو كان يفهمه ما قال أنه مفهوم لدى جميع الناس . وأى ناس يا ترى ؟ الناس الآن الذين ألقوا القرآن ، أم الناس فى الجاهلية ، أم الناس فى صدر الإسلام ؟ وبأى ميزان يا ترى تبين له التفاوت بين جزئى الآية ؟ إنه لا يفهمهما رغم تحمسه لأولهما ، وإلا ما افترض أن الإنصاف يقضى بالاعتراف بأن ثانى الجزئين دون الأول ؛ بهتاناً يلقيه بشير دليل . إنه يرى الكلام جزأفاً ، وإلا ما قال إن المعنى الأول بكر لا يجرى إلا على السنة الحكماء والأنبياء والثانى غير بكر ، مع أنه هو الذى لا يمكن أن يجرى إلا بوحى على السنة الأنبياء

ثم إن الرجل يكذب حين يزعم لك أنه أورد الآية كاملة . فهو لم يورد إلا نحو ثلث الآية ، على جلال ما أورد . فالآية هي من سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا ،

الألفاظ ؟ أترون لاختيار الألفاظ مداراً غير موجبات المعانى والأغراض ؟ » أسئلة يرسلها على القارىء كأن القارىء حكم فى الموضوع ، وليس كل قارىء يستطيع الحكم فيه . ومع ذلك فإن صاحب النثر الفنى قد دل بتلك الأسئلة على أنه ليس من الأدب ولا من صحة التفكير فى شئ ، وإلا فإين فى اللغة العربية كلها يجد خارج القرآن أسلوباً كما أسلوب تلك الآيات الخمس ؟ ليدل قراء العربية عليه إن كان يستطيع . وأمامه الآيات قد عرف معناها - إن كان قد عرفه - فليعبر عن المعنى ، وليحتفل ، ولينظر أين يصل به الجهد . بل ليختار آية منها ، أيها شاء ، وليقتصر محاولته عليها ولو بتغيير لفظ ، أو تغيير حرف ، أو تغيير ترتيب ، ثم لينظر هل يمكن أن يأتى بشئ يقبله منه أهل العربية أنه عدل الآية ، أو قريب منها ، أو يمكن أن يوضع وإياها فى ميزان . إنه التحدى القديم أطرحه فى أبسط صورة عاينه الآن من جديد

وزعم زكى مبارك أن السياق الفنى فى تلك الآيات ليس غريباً عن الأعراب . فن أن له ذلك وهو يقول أن : « ما نقله الرواة من النصوص لا يكفي لتعيين أساليب النثر فى العصر الجاهلى . وهو على قلته مما وضع فى العصر الأموى وصدر العصر العباسى لأغراض دينية وسياسية »^(١) ؛ فن أين له تعيين أسلوب الخواصر فضلاً عن أسلوب البوادر حتى استطاع الحكم ؟

ويقول الدكتور زكى مبارك إن السجع كان معروفاً قبل القرآن ، جواباً على ما افترض على لسان القارىء من امتياز الآيات بالسجع ، كأنه يظن أن مجرد وجود السجع هو الامتياز . فإن كان هذا هو المراد فقد أنطق القارىء بجواب غير معقول ليأتى عليه برد معقول ! أم هو يرى أن ما سماه فى الآيات سجعاً هو سجع من السجع لا فضل له على ما سواه . هذا هو لازم رده على ما أنطق به القارىء من جواب ، إن كان يرى أنه أحسن الرد . وإذن يكون رده ذلك دليلاً على تسويته فى التقدير بين سجع القرآن وسجع غير القرآن

ثم يمضى الدكتور زكى مبارك فى استشاداته يقول :